مختارات

القديس كوزما الإيتولي

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أعطانا الله كل شيء مجاناً

أولًا، علينا أن نحب الله، لأنه في هذه الحياة المؤقتة أعطانا أرضاً كبيرة ومريحة، ومجموعة كبيرة ومتنوعة من النباتات والينابيع والأنهار والبحار والأسماك والحيوانات وكذلك الهواء والنار والنهار والليل والسماء والنجوم والشمس والقمر. كل هذه خُلقت لنا. ماذا كان علينا أن نفعل في المقابل؟ لا شيء. لقد أعطانا الله كل شيء مجاناً. لقد جعلنا بشراً، وليس حيوانات؛ مسيحيين أرثوذكسيين أتقياء، وليس هراطقة وأشراراً. على الرغم من أننا نخطئ ألف مرة في الساعة، إلا أنه يرحمنا أبٍ، ولا يميتُنا، ولا يلقي بنا في الجحيم. وإذْ هو مستعد لاحتضاننا فإنه ينتظر منا أن نتوب ونكفّ عن ارتكاب المساوئ ونبدأ في الاعتراف والإصلاح وفعل الخير، وذلك لكي يقبلنا في أحضانه ويُقبِّلنا، ويفتح لنا أبواب الفردوس لكي نبتهج إلى الأبد. ألا ينبغي لنا أن نحب إلهاً مثل هذا، مثل هذا الرب والمعلم اللطيف؟

الكبرياء هي الابنة الأولى للشيطان

فإذا تاب الإنسان وصلّى وصام، يحترق الشيطان ويتركه. عندما سقط أول صف من الملائكة من المجد وتحوّل إلى شياطين، تواضعت الرتب التسعة الأخرى، وسقطت على وجوهها وسجدت للثالوث الأقدس، وبقيت في صفوفها تبتهج إلى الأبد.

علينا نحن أيضاً، أيها الإخوة، أن نفهم ما هي الكبرياء الشريرة: فقد أخرجت إبليس من مجد الملائكة وهيأت له العذاب الأبدي. التواضع حفظ الملائكة في السماء، وهم يبتهجون إلى الأبد إذ يرون المجد العظيم للثالوث القدوس. ويجب أن نعلم أيضاً أن الله الكلي صلاحه لا يقبل المستكبرين، بل يحب المتواضعين. وليس الله فقط، بل نحن أنفسنا ننظر إلى الإنسان المتواضع كملاك، وإلى الشخص المتكبر كشيطان. فلنتجنب الكبرياء، لأنها الابنة الأولى للشيطان، والطريق المؤدية إلى الهلاك. ولنحرص على اكتساب التواضع الملائكي الذي يفتح لنا الطريق إلى الفردوس. إليكم مثالاً حياً: عندما نرى امرأة قبيحة وعاجزة وفي ملابس ممزقة، ولكن متواضعة، فإنها تبدو لنا كملاك. عندما نرى امرأة بثياب جميلة وبمجوهرات ثمينة تتلألأ كالشمس ولكنها متكبرة ووقحة مثل "العملة المزيفة"، تبدو لنا كالشيطان ونبتعد عنها حتى لا نراها.

جسد بلا نفس هو كالحجر

لم يكن هناك رجال ونساء على وجه الأرض. أخذ الله القدير التراب والطين وخلق الإنسان ونفخ فيه الحياة وأعطاه روحاً ملائكية خالدة. وكما تخلط النساء الدقيق والماء للحصول على الخبز، كذلك خلط الله الطين بالروح ليشكّل الإنسان. يجب أن نفكر في ما هي الروح وما هو الجسد. الجسد تراب، طين، وغداً يصبح طعاماً للدود، والنفس تبتهج في الفردوس إلى الأبد إذا عملت خيراً، وتحترق في النار إذا عملت شراً.

أيها الإخوة، الجسد الذي نراه ليس الإنسان نفسه، بل ثوب الروح فقط. النفس هي شخص، إنها ترى وتسمع وتتكلم وتمشي وتتعلم القراءة والكتابة وتتعلم العلوم والحِرَف. إنها تعطي الحياة للجسم ولا تسمح له بالتحلل. بمجرد أن تغادر النفس الجسد، يبدأ الجسد على الفور بالتعفن ويصبح طعاماً للدود، لأن الجسد في حد ذاته ليس شخصاً. للجسد عيون ولا يرى، فم ولا يتكلم، أيدٍ ولا يمسك، أرجل ولا يستطيع المشي. جسدٌ بلا نفس هو كالحجر.

أنتم أصل أطفالكم

عندما تقطع شجرة، تجف أغصانها على الفور، ولكن إذا سقيت جذورها، تمتلئ الأغصان بالقوة. لذلك، أيها الآباء، يمكن تشبيهكم بالشجرة: أنتم أصل أطفالكم، وعندما "تسقون" أنفسكم بالصوم والصلاة والصدقات والأعمال الصالحة، فإن الله يحمي أطفالكم أيضاً. وإذا "ذبلتم" من الذنوب، يُميتُ الله أولادكم أيضاً، ويرسلكم معهم إلى الجحيم. إذا أنتجت شجرة تفاح تفاحاً حامضاً، فعلى مَن يقع اللوم: على شجرة التفاح أم التفاح؟ إنه يقع على شجرة التفاح. لذا، افعلوا الصواب أيها الآباء، حتى يصبح تفاحكم حلواً.

الغفران ينير ويلفح

أيها الإخوة، إن للغفران خصلتان: إنه من ناحية يُنير، ومن ناحية أخرى يُحرق. أنصحكم أيها المسيحيون أن تسامحوا أعداءكم من أجل مصلحتكم. وأنت يا من أسأت إلى إخوتك، عندما تسمع أنني قلت لهم أن يسامحوك لا تفرح، بل ابكِ وأعوِل! هذا الغفران سوف يحرقك إذا لم تَرُدّ ما أخذته من إخوتك. وإذا لم تبكِ بالدموع من أجل مغفرة مَن أسأت إليهم لن يُغفر لك، ولو غفر لك جميع المعترفين والبطاركة والأساقفة والكهنة والعلمانيين. من لديه القدرة على أن يمنحك المغفرة؟ فقط الشخص الذي أسأتَ إليه. يجب أن ترد لمن أخطأت إليه أربعة أضعاف، وبعد ذلك تنال المغفرة - هذا ما جاء في الإنجيل المقدس.

الأسرار الإلهية

أخبروني يا إخوتي هل الشمس مشرقة أم مظلمة؟ يعلم الجميع أنها مشرقة وتنير كل شيء. لكن بعض الحيوانات (مثل البوم والخفافيش) تصاب بالعمى في ضوء الشمس، فيما ترى جيداً في الليل. كذلك الأمر بالنسبة للأسرار الإلهية: فهي تنير الإنسان الصالح وتجعله مساوياً للملائكة، ولكنها تظلم الخاطئ وتشبّهه

بالشيطان. النار لا تحرق كل شيء: الذهب، على سبيل المثال، عندما يكون في النار فإنه يصبح أكثر إشراقاً ونقاءً. لنكن نحن أيضاً كالذهب، لا كالأغصان فنحترق.

خصائص المحبة

المحبة يا إخوتي لها خاصيتان: أن تمنحنا القوة لفعل الخير ولقتل الشر. تخيلوا: تتناولُ الأم الخبز لتأكل، وعندها يبدأ طفلها بالبكاء. تنسى الطعام وتندفع لتعزية طفلها. ما الذي يحفّز الأم؟ محبة الطفل. أو لنفترض أن الطفل يبكي عندما تكون أمه مريضة. فهي تنسى على الفور مرضها وتسرع إلى طفلها. ما الذي يحفّزها؟ المحبة. إذا كنت أحبك، فإن محبتي تقيّد يدي، ولا أستطيع أن أقتلك، أو أسرقك، أو أخونك، أو أنتقم منك، أو ألحق بك أي أذى آخر.

إذا أخبرتك بأنني أحبك، فيجب ألا أحبك أنت وحسب، بل وأيضاً طفلك- عندها فقط تكون محبتي حقيقية. فإذا قلتُ: "أنا أحبكَ، ولكني أكره ابنك"، فإن محبتي لك باطلة ولا قيمة لها. إذا قلت إنني أحب الله (رغم أنني لا أراه)، لكني لا أحبك يا أخي الذي أراه كل يوم، ففي هذه الحالة ما أنا إلا بكاذب. لذلك يا إخوتي، إذا أردنا أن نخلص، فلا ننظرنّ إلى شيء هنا على الأرض، إلا إلى محبة الله وإخوتنا.

Source: St. Cosmas of Aetolia. Pride is the First Daughter of the Devil. Pravoslavie.ru. Translation by Russian Faith. Pravoslavie.ru. 9/20/2023. https://orthochristian.com/156142.html